

المستشار الثقافى لوزارة الاوقاف والشئون الاسلامية

« عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : ان رجلا رأى (١) كلبا يأكل الثرى (٢) من العطش فأخذ خفه فجعل يغرف (٣) له به حتى أرواه (٤) فشكر الله له (٥) فأدخله الجنة (٦) .. »

رواه البخارى

١ — يموج عالمنا المعاصر ويضطرب بغارات تشن ، وحروب تستعر ، وأجسام تهاوى تحت وقع القنا والقنابل ، وأرواح تصعد الى بارئها شاكية ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وتسائل الزمان فيجيبك : ما انا الا ليل ونهار ، وعاء يحتوى الباغم والصامت ، ويظل المحسن والمسىء ، ويدب فى أرجائه حامل السم وبائع البلسم ، ولقد عييت بما عنه تسأل ، ولم أجد جوابا يشفى الغليل ، ويريح القلب العليل ، راقبت الكائنات فوجدت الجماد يتحرك ليغير موضعه فيكشف عن خبىء ، أو يرتفع لصد عاد ، والفيت العجماوات تتهارش ولكن

---

(١) رأى : فى سياق الحديث الشريف بمعنى أبصر .

(٢) الثرى : فى مختار الصحاح : بفتح الثاء المثلثة والراء المهملة مقصورا ، هو التراب الندى ، وأما الثراء بالمد فهو كثرة المال ، وليس مرادا هنا . وفى رواية أخرى للحديث الشريف : كلبا يلهث ، وورد فى المختار أيضا : اللهثان بفتح الهاء ، العطش ، وبسكونها ، العطشان ، والمرأة لهثة ، وبابه طرب ، واللهاث بالضم ، حر العطش ، ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش أو التعب وكذا الرجل اذا اعيا وبابه : قطع .

(٣) يغرف : (بفتح الياء المثناه التحتية وكسر الراء) فى المصباح المنير : غرفت الماء غرفا من باب ضرب ، اخذت منه وهو فى موضعه .

(٤) أرواه : جعله ريان ، ضد عطشان .

(٥) فشكر الله له : قال المتقدمون رحمهم الله ورضى عنهم : معنى الشكر الثناء أو المجازاة .

(٦) ورد هذا الحديث الشريف بروايات أخرى : منها (بينما رجل يمشى بطريق فاشتد عليه الحر ، فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى نزل بى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى من البئر فسقاه) وفى رواية : فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله : ان لنا فى البهائم لأجرا ؟ فقال : ان فى كل كبد حرا رطبة أجر .

بمقدار ما يملأ المعدة الخاوية ، ويسد الرمق ، ويمسك الذماء ، فما دام المفترس ملىء البطن ، فلا يفكر فى الاعتداء(١) فقد يمر الغزال بالأسد فلا يلتفت اليه حينا ، والثعبان لا يعض الا اذا ديس ، والكلب لا ينبح الا اذا أهيج ، والقطا اذا أمن الاساءة صار اليفا ، منظر رائع تراه فى الحرم الشريف ، يمسك الرجل بالحب فى راحته فيسقط عليه الطائر يلتقطه ، ثم يعود الى جوه الطليق بملء حريته ، مرفوفا بأجنحته شاكرا حسن الصنيع .

دع ذا : وتأمل الانسان ذلك الحيوان الذى اسموه عاقلا ، تجد العجب العجاب ، الذى حير الفلاسفة ، واعيا المباقرة ، تجده أخضع ما باينه ، ووضعه قيد البحث والدرس ، وعجز فى الوقت نفسه عن أن يخضع شهوته(٢) فجمع الشىء ونقيضه ولكن فى غير تقابل(٣) وصب جام احساساته الحيوانية البحتة على نفسه ، كالشاعر الهجاء الذى قبح وجهه حين أبصره فى مرآته ، وازكى الانسان نار الصراع فى غير موضع نزاع ، فتطايرت اشلاؤه تحت وطأة ممزقها ، وقسوة مفترسها ، وعج بها الكون ، واكتظ الفضاء حتى عافتها وحوش الفلاة ، ولوت عنها اعناقها عقبان الهواء ، فأزكمت الأنوف بما ثار من روائحها الكريهة التى عجت بها الدنيا المعاصرة ، فما نجت من شرها قارة ، ولا تخلص من آثارها قطر ، فى آسيا قتال ، مثله فى افريقيا ، أثارته دولتان يعجز عقلاؤهما — ان وجدوا — عن تعليل اثارتها ، ادعتا انهما كبيرتان ولكنه كبر مادة وكثرة عدد ، وتضاؤل تفكير ، وانعدام روح .

٢ — قال صاحبى ، الصراع عبر التاريخ موجود ، لم يخل منه عصر ، ولم ينج من شره مصر ، ولكن صراع الأقدمين من الممكن تعليله ، أو تبريره ، فقد تستطيع ان تلتمس لهياجه عذرا ، فقد كانت آفاق الارض منعزلة تماما ، فالمرء فى قرية أو مدينة لا يدرى ما يدور فى القرى والمدن المجاورة ، فغزا مدفوعا بحب الاستطلاع ، وأحيانا تحت وطأة الجوع ، واما الآن فقد تلاشت المسافات ، وقضى على الفوارق الطبيعية ، ومن الممكن تبادل الانتاج دون عناء أو مشقة ، فالتاجر الآن فى أقصى المعمورة يستورد انتاج مصنع فى الطرف الآخر منها بمفاوضات مباشرة لا تديرها حكومة ولا تحرسها طائرات قتال ، ولا تدفع اليها غريزة استملاك ، وانما رائدها المصلحة مصلحة الطرفين ، ونفع الجانبين ، يلتقى المشترى مع المنتج فى جو اخوة حانية يحدوهما النفع العام ، ويسوس لقاءهما خير المجتمع المنقولة اليه البضائع والمنقولة عنه ، والسائح الذى قدم ماله طائعا مختارا راضيا لقاء مشاهد لم يعهدها ، ومناظر يستجليها ، يقابل

---

(١) ذلك الأعم الاغلب وله وضعت القواعد والشاذ لا حكم له .
(٢) المراد بالشهوة هنا ، الرغبة الملحة التى تقوى حتى تلاشى الارادة ، وقد تضعف حتى تتلاشى هى وكلا الوصفين مذموم ، والممدوح ، الاعتدال .
(٣) ولهذا لا يعد تناقضا على مذهب ارسطو ، وان عد واقعيا عين التناقض .

فى كل مكان يحل فيه بالتبجيل والتيسير والاكبار ويقفل عائدا الى مسقط راسه بعد أن يكون صداقات ، ويكتسب ثقافات ومعارف ، ويغنم صـــحة وراحة ، فالشعوب الآن مندمجة فى بعضـــها حتى لا تســـتطيع ان تميز المقيم فيها من المسافر ، ولا الغريب من صاحب البلد ، ولقد جبت بلادا من أرض الله واسعة فما رأيت غربة ولا شعرت بفرقة ، ففى كل مكان لقاء كريم مع رحابة صدر ، وفى كل موطن صديق قد تفوق صداقته أخوة اللحم والدم ، فعلام القتال يا عقلاء البشر ، ولماذا النزاع والصراع يا أرباب المبادىء وحراس الانسانية ، وسدنة السلام كما تدعون ؟! أو كما استقر فى صفحات مكتوبة مطوية ، وتلاشى واقعا وتطبيقا . هل من مجيب ؟!

٣ ـــ قال صاحبى : لقد شططت ، ولحدود الحديث تجاوزت فما الربط بين كلام النبوة الذى جعلته عنوانا وبين ما جرى به القلم ؟ وما درى صاحبى ـــ وهو يدرى ـــ أن صاحب الغيب الذى عنـــده مفـــاتحه يأخذ بيد البشر الى مسرح الحوادث لتلمسها لمسا وتحس بها فى موضع قد يظن الســـامع أو الملتقى أنه بعيد وما هو بعيد ، فمن رحم حيوانا أعجم كان بالانسان أرحم ، ومن عرف أن مغفرة الله منوطة بكل ذات كبد رطبة ، بدأ بنفسه ثم بمن يليه ، فابتعدت عن الفعل السيىء فعاله ، واتجهت الى النافع المفيد حركاته وسكناته ، وذلك توجيه السماء على لسان خير الأنبياء ، لا يسلك الطريق المباشر وانما يضرب الأمثال ليجذب الانتباه ، ويوقظ مكامن الادراك ويوجه القلوب القاســـية حتى تلين ، ويشحذ العزائم لفعل الخير ، فهذا حيوان ضال فى فلاة ، لا يضير الرجل موته ولا تنفعه حياته ، وسيان فى سباق جولانه الحياتى فنى الكلب أم عمر ، فلماذا يتحمل النزول الى أغوار البئر والصعود منها ، ولماذا يمســـك بفيه خفه ، ويتلمس بيديه طريق النجاة ، ويتحاشى السقوط فى الأعماق ، ماذا يفيده فعله هذا عاجلا ، لا شىء فى رأى ماكيافلى العصر وجزارى الانسانية ، حماة المـــادة وأعداء الروح ، نسوا أو تناسوا حتى نسوا شيئا كامنا يحســـونه ولا يرونه ، يستكن بين جوانحهم حقيقة لا تنكر ، ويهال عليه تراب المـــادة كى لا يظهر ، شعور ، احساس ، ضمير ، تعبر به الانسانية مفاوز الحيـــاة ، وتجتاز على ضوئه طرقها المتشعبة ، ماضية الى مصـــيرها المحتوم آمنة ، راضـــية ، نافعة ، منتفعة ، يسقى الـــكلب فيســـتريح القلب ، واى قلب ، القلب ذو الاحساس الانسانى الدفين الذى أنبته الله ولم تقتله المادة العفنة النتنة ، ثم ينطلق من مجال الاحسان مع الحيوان الأعجم الى مجال أرحب ، والى فضيلته اقرب ، فيزيل الضر عن اخيه ، ويدرك أنه اذا آذى انسانا فانما آذى نفسه التى بين جنبيه ، ويجرنى الحديث ـــ والحديث ذو شـــجون ـــ اذ أذكر حادثة مرت بتاريخ شخص عزيز على الله ، تبدو فيها حيوية الضـــمير ، وانبعاث الروح الـــكريمة المؤمنة بقيوم الســـماوات والأرض الى الخير ، جاءنى يوما ذلك

العزيز مهتاج النفس ، قلق البال ، لا يدرى كيف يدير القول ، فهدأت من ثائرته ما شاء الله أن يمكننى من ذلك ، وبدا يقص مثار ثورته النفسية الأليمة ، قال : ان فلانا وسمى شخصا لا اعرفه (هيولى) وانما أخبره وظيفة وعملا ، قد اساء الى ، وبالبحث تكشف النقاب عن اساءات له متكررة بنفس الصورة مع كل طالب حق لديه ، مع انه غريب عن الديار ، وفد اليها طالبا القوت التى أعياه العثور عليه فى مسقط رأسه ، فجشعت نفسه حين اشتمت رائحة القتار ، فلم يكفه الحلال الذى ينساب بين يديه ، فراح يطلب المزيد فى الممنوعات دينا وعرفا وقانونا واخلاقا وانسانية ، فأسلمته متلبسا بجريرته الى من أقاله من عمله ، وكان ذلك أخف العقاب ولكنى أشعر الآن بمرارة واسى فقد اكون جانيا على من يعول ، ولا ادرى كيف الخلاص من عذاب الضمير فأنجدنى : وكان الجواب الذى كان ، والذى لا يوجد دواء انجع منه لتلك النفوس الكريمة ، ورضى محدثى بالجواب وأجرى نفقة دائمة لا يزال يبعث بها من ماله الحلال الى ذلك الذى فارق وظيفته وما فارقته متاعب النفس الآثمة ، وذكرنى هذا الصاحب بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى خلاصته : ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت صخرة فهو يخشى ان تقع عليه ، ومن ران على قلبه العصيان يرى ذنوبه كذبابة مرت بأنفه فقال بها هكذا ، واشار الرسول بيده الشريفة اشارة من يدفع الذباب عن وجهه .

ومن تأمل الحروب الجارية ، والعداوات الأممية السارية ، وجد ان الانسان عند المتزعمين للعالم المعاصر لا يعدل كلبا ولا يساوى شربة ماء .

٤ ـ وقال صاحبى وقد هاله امر الانسانية المعاصرة عجبا لهذا المخلوق وأى عجب ، تسمو روحه حتى لا تقف امامها حدود المادة ولا تعوقها قيودها ، وتضعف احيانا حتى تتلاشى فى بيداء الجهالة بالله والبعد عن رحابه حتى يتساوى الجمل الهائج والرجل الغاضب ، ويعوى الذئب فيأنس السارى ، ويرتفع صوت انسان فيفر منه فرار السليم من الأجرب . وقد قيل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى ... وصوت انسان فكدت اطير

وجعل صاحبى يدير القول ، وختم حديثه بمقالة المتصوف الضارب فى اغوار التاريخ مثلا والسارى عبر الأيام عملا وواقعا ، ذلك المتصوف الذى دعا لقاتله حين ظلمه ، تتلوه باسم الدين ، باسم الحرية ، باسم الانسانية ، فمضى ضحية شهوة أخيه الى الدماء ، يلتمس له العذر ، ويردد : تلك حكمة الله ولا اعتراض ..

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم فى دوران الفلك
فلا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

وانفض المجلس ، وانا لا ادرى متى ترحم الأكباد الرطبة ، ومتى يلجأ الناس الى بارئهم ولكن : (فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا) . وصدق الله العظيم .